الخـوف من الكتابـة عـن الذّات
-قراءة في رواية (لا مكـان في منـزل والـدي) لآسيـا جبّـار-

د/ نسيمة بن عباس جامعة خنشلة

ملخص:

تتناول مقالتنا الكتاب الأخير الذي أصدرته الروائية الجزائرية الراحلة آسيا جبار" لا مكان في منزل والدي". امتازت هذه الرواية بأنها تكملة وإنهاء للمسار الإبداعي الطويل للكاتبة و إعادة على المستوى الموضوعاتي والأسلوبي للهواجس نفسها التي طالما شغلت آسيا جبار؛ أي موضوعة الأنا و الآخر، و الذات والكتابة،والسيرة والتخييل الذاتي.

الكلمات المفاتيح: الكتابة النسوية ، الرواية مابعد الكولونيالية ، السيرة الذاتية ، التخييل الذاتي، التداخل الأجناسي.

Summary:

Our article is about the last novel of the Algerian defunct writer "Assia Djebar " titled "No Where in My Father's House"

This novel was characterized as being a beginning, an end to the long creative path of the author, at the level of semantic and stylistic of the writer's concern: the ego the other, the writing and the self, biography and autofiction.

Key words:Feminist writing, post colonial novel, autobiography,autofiction , race intersection

1-السّيرة الذّاتية والتّخييل الذّاتي Autobiographie et autofiction :

كتب فيليب لوجون.le jeune في مقدمة كتابه "العقد السير ذاتي" أنّ ما "ندعوه بالسّيرة الذاتية يمكن تناوله بعدة مقاربات: المقاربة التاريخية، إذ أنّ كتابة الذات تطورت في العالم الغربي منذ القرن الثامن عشر وهي ظاهرة حضارية،[أو] المقاربة النفسية لأنّ العقد السير ذاتي تدخل [في إطاره] مشاكل عدة، كتلك المتعلقة بالذاكرة أو بناء الشخصية والتحليل الذاتي، لكن السيرة الذاتية تقدم [نفسها] أولا كنص أدبي "[(1)]

هكذا يضعنا المنظّر الفرنسي منذ البداية في صلب المشكلات التي يطرحها النص السير الذاتي، فهو نص التعدد والتداخل والالتباس؛ التعدد لأنّ له عدة أشكال فيمكن لصاحبه أن يختار أن يكتبه نثرا كما هو حال العديد من النصوص السير ذاتية أو شعرا ولنا في ديوان "لماذا تركت الحصان وحيدا" لمحمود درويش أحسن مثال عن السيرة الذاتية المكتوبة شعرا، والتداخل لأنّ السيرة الذاتية خاصة تلك التي كتبها الروائيون أو الفنانون أو رجال السياسة والفكر تجمع وتخلط بين عدة أجناس كجنس المقالة أو المذكّرات

أو اليوميات أو الرسائل وتستعين بعلوم أخرى كالتاريخ وعلم النفس، أمّا الالتباس فهو يقع على مستوى التلقي لأنّ قارئ السيرة هو بالدرجة الأولى قارئ فيتيشي متلصص في أحيان يعثرعلى ما يشبع فضوله اتجاه صاحب السيرة ،ولا يلقى في أحيان أخرى ما يبحث عنه داخلها، وقد يكون دافع القراءة تعلّم ،أخذ عبرة، تصحيح صورة معينة ارتسمت عن صاحب السيرة أو على العكس تأكيد ما كان ظنا فإذا به بعد الوصول الى آخر النص يخرج بصورة مغايرة لا تطابق الواقع وأقرب الى اعادة البناء الفني الذي يخضع لإرغامات أخرى.

إنّ السّيرة الذّاتية معقدة على أكثر من مستوى وخاصة إن أدرجت تحت مسمى "الرواية" لأنّ الرواية تنتمي إلى عالم التخييل (Fiction) والذي منه يتحرر الكاتب من كل شرط سوى الشرط الابداعي في حين أنّ السيرة الذاتية يلتزم صاحبها ضمنيا بقول الحقيقة والوفاء لها ذلك أنّ الميزة الأساسية التي "تميّز في نظر لوجون جنس السّيرة الذاتية وما إليه من نصوص مرجعيّة، كالسيرة مثلا أو النصوص الدّاخلة في ما يسمى بأدب الذات، هي الخصيصة المرجعيّة التي ينهض عليها العقد السير ذاتي بحيث يقوم بين النص والواقع الخارجي صلات متينة لا لبس فيها، وفي هذه الحالة فانّ العقد السير ذاتي مداخل لما أسماه لوجون بالعقد المرجعي، مندرج به وقوامه تعهد الكاتب بأنّه يصدر فيها يكتب عن وقائع حقيقية هو مؤمن بصحتها وملتزم بدقتها. وعلى ذلك صح اعتبار الوقائع المرجعية وقائع ذات طبيعة متميزة تجعلها قابلة للتصديق أو التكذيب، خلافا للوقائع المتخيّلة التي تقبل ولا تناقش"[(2)] لذلك فإنّ الرواية السيرة ذاتية تجمع بين نوعين من الكتابة التوثيقية والكتابة الإبداعية الأولى نثق في حيادها بينما الثانية نحاول كقراء الانتباه إلى جمالياتها وإلى حيلها الأسلوبية.

2-التخييل الذاتي:autofiction

ظهرمصطلح التخييل الذاتي لأول مرة سنة 1977، عندما نشر سارج دوبروفسكيdobrovsky روايته" ابن" « fils » حيث طابق بين اسمه الخاص واسم بطل الرواية وقدّمه على أنه بطل خيالي، هكذا أسّس دوبروفسكي لفرع جديد من الكتابة الشخصية، ميزتها الأساسية هو الالتباس وانمحاء الحدود؛ اذ تعمد على محو الفواصل بينه كشخص عام ومعروف وبين بطل عمله كشخصية خيالية من ورق وحبر.

أثار هذا العمل حين صدوره عدة اشكالات على مستوى التلقي والتأويل وبالطبع حين سئل صاحبه عن جنس هذا "المولود الجديد" لم يجد غيرتسمية "التخييل الذاتي ".

لقد قام الروائي بإسقاط أهم ركن في العقد السيرذاتي وهو الركن الذي يقول بأن السيرة الذاتية تقرأ على أنها نص أدبي نثري يحكي حياة صاحبها على نحو يطابق الواقع أو يتشابه معه، إذ نجد أن عنصر المطابقة أو المشابهة قد ألغي، في السيرة الذاتية المعادلة تقول أن المؤلف هو السارد بينما في التخييل الذاتي، المؤلف والسارد هما شخصان مختلفان على الرغم من تطابق اسميهما.

قد يتساءل البعض لماذا هذا النوع من الكتابة؟ وما الجديد الذي يضيفه؟ لماذا لا يختار صاحبه أحد الطريقين؛ إمّا الإعلان بأنه سيكتب سيرة ذاتية أو أنّ عمله عبارة عن رواية.

عندما انكب الدارسون على مخطوطات نص "إبن" وجدوا أنّ دوبروفسكي كتب الجملة التالية: " ستكون سيرتي تخييلي الذاتي"Mon Autobiographie sera mon auto-fiction [3] فهذه الجملة الافتتاحية كما قال فيليب غاسباريني ph.gasparini "تمهّد لهذه الكلمة الجديدة وتقدم [لها في الآن نفسه] ما يمكن أن نعتبره تعريفا؛ " جعل أحداث حقيقية أحداث متخيّلة" قد يبدو هذا الملفوظ في الظاهر حاملا للامعنى مطلق، إذ في المنطق السليم " التخييل" و" الأحداث الحقيقية" يقصيان بعضهما؛ ففي معجم لوربير le robert مثلا يقدم "الواقع، الحقيقة " كأضداد لـ"التخييل" [4].

ومع ذلك فإنّ ما قام به دوبروفسكي أتى حينها في سياق إعلان عدة كتّاب سير ذاتية أنّ حياتهم تشبه رواية. وبهذا فإنّ دوبروفسكي قام بإعادة النظر في موضوعة معروفة ويقدم غاسباريني نص رولان بارت المعروف والمنشور سنة 1975 " رولان بارت بقلم رولان بارت" والذي شدّد فيه على أن يتم اعتباره في هذا الكتاب كشخصية [تخييلية] روائية[5] كأحسن مثال على هذه الكتابة القلقلة والماكرة، التي تمجد التناقض الدلالي والأجناسي وتضع القارئ أمام معضلة حقيقية، هل نحن أمام قول يعكس الحقيقية أو الواقع أم أمام خطاب غير حقيقي يتأمل نفسه ويمحي كل صلة بالواقع ويدفعنا إلى الدخول في لعبة جديدة هي اللغة ذاتها المنقطعة عن كل مرجعية؟

إنّ الحديث في هذه المقالة عن " التخييل الذاتي" له علاقة بما كتبته آسيا جبار على واجهة كتابها " لا مكان في منزل والدي" فتحت العنوان مباشرة وضعت الروائية كلمة " رواية " كأنّها تسارع لتقول لقارئها "لا تحاول أن تبحث عني أو عن الحقيقة في هذا النص فكل الأحداث مختلقة حتى وإن بدت لك أنّها تحكي حياتي" لكن بعد الانتهاء من قراءة نصها يبدو أنّ رهانها خاسر فهي وإن لم تلتزم بالعقد السير ذاتي على غلاف الرواية، فإنّ المتن يقول العكس تماما، فنحن أمام رواية سير ذاتية لا أمام "تخييل ذاتي" وهذا الحكم ليس بمطلق إذ حملت بعض فصول الكتاب مقاطع " Fragment" غامضة وملتبسة يمكن أن تؤوّل على أنّها تخييل ذاتي.

3-آسيا جبار ومسيرتها الأدبية (الروائية):

إنّ المتتبّع للمسار الأدبي للروائية الجزائرية آسيا جبار لا بدّ أنّه قد لاحظ حضور الجانب الشّخصي والحياتي في جلّ كتاباتها، ففي أحيان كثيرة كانت الروائية تقحم أحداثا عاشتها في طفولتها ومراهقتها وفي فترة نضجها وكهولتها. فمثلا في روايتها الرابعة "القبرات الساذجة "(1967) Les Alouettes naïves تجد أنّها وطوال أربعين صفحة من الرواية لم تستطيع -كما قالت- أن تمنع نفسها من الحديث عن ذاتها وعن سعادتها الشخصية، مضيفة: " لقد تمنيت أن لا يقرأ أحد هذه الصفحات، فهنا نقف على تربيتي العربية حيث لا نتحدث عمّا هو حميمي" [6].

وعلى الرغم من رعب الكشف الذي تشكّله الكتابة السّير- ذاتية بالنسبة لها كما كتبت ذلك لورنس هوغ (Laurance Hugue)، وتلميح الروائية إلى وحدة المنفى التي ستحكم بها الكتابة السير ذاتية عليها، فإنّ " الأنا" دائما تفرض نفسها وبعدة أشكال، فمثلا في روايتها الأكثر شهرة " الحب، الفانطازيا " (L'amour, la Fantasia) تميّز ضمير المتكلم فيها- بالإضافة إلى كونه يعود على الروائية- بكونه مواز إن لم نقل مطابقا "للآخر" والآخر هنا هو كل النساء الجزائريات اللائي عانين عبر تاريخهن الطويل وبالأخص خلال الفترة الاستعمارية من قهر مزدوج: من قبل المجتمع الذكوري والمستعمر، أنا متعدّد:" يقارن نفسه بالنساء الأخريات للقبيلة وهذه المقارنة ستأخذ عدة أشكال، إما بمعنى الهوية مع أولئك النسوة الفتيات المنتميات إلى نفس المجموعة الاجتماعية، أو بمعنى الاختلاف وأحيانا التضاد بالمقارنة مع الجدّات....." [7]

إذُا "الأنا" هنا إمّا في علاقة تعارف وتماهي وتعاطف أو في علاقة نفور ورفض، وهناك بالطبع "الآخر" الثاني الذي يمثله الرجل الجزائري، والثالث الذي يمثله المستعمر الفرنسي وفي حالة هذا الأخير يتم اللجوء إلى خطاب ثان، هو خطاب التاريخ إذ تستنطق آسيا جبار عدة نصوص تركها المستعمرون سواء أكانوا جنرالات أو ضباطا أو معمرين أو كتّابا أو رسّامين أو مستشرقين رافقوا الحملة الإستدمارية الفرنسية بكل أشكالها.

إنّ "الحب، الفانطازيا" يقع- كعمل روائي مركزي - في صلب رباعية تضم الأعمال التالية: "ظل سلطان" " فسيح هو السجن "، وأخيرا "المرأة بدون قبر". فكانت الفرصة لمنح الصوت أو إن صح التعبير، إعادته لكل أولئك النسوة على اختلاف مشاربهن وأيضا إدماج صوت "الأنا" وتطلعاتها، أمالها وخيباتها، أحلامها وكوابيسها لمعالجة النسيان والتهميش الذي طال الذاكرة والتاريخ النّسوي.

ولمقولتي " الذاكرة" و "التاريخ" المركز الأهم في كل كتابة سير ذاتية، فمن دونها يستحيل على الذّات أن تكتب أو تسرد ذاتها والذوات الأخرى، "فالذاكرة المروية هي مادة نص السيرة الذاتية، ونص السيرة الذاتية ينظم الذاكرة بقدر ما تقدم الذاكرة مضمون نص السيرة الذاتية.[8]

أما مقولة التاريخ " كعلم لمعرفة الماضي" قد احتُكرت معرفته وتفسيره من طرف الرجل، حيث ستعيد الروائية مساءلته من جديد كما فعلت في "الحب، الفانطازيا "، ولكن هذه المرة استجابة لضرورة ملحة أملتها الظروف المؤلمة والرهيبة التي عاشتها الجزائر بداية التسعينات، ذلك أنّ الإرهاب لم يكن سياسيا أو عسكريا فقط، بل كان أيضا فكريا، فكان ردّها بأن انحنت "كمسلمة وكمؤمنة.. على النصوص المتعلقة بالتاريخ الديني للوطن ولحياة الرسول (ص) من أجل إعادة الاعتبار للدور الذي لعبته النساء في نشر الدين الجديد وتأثيرهن على المؤسسين للإسلام الأصيل، وفي بناء الحضارة الإسلامية."[9]، فكانت رواية " بعيدا عن المدينة " (المنورة) التي أرادتها كإعادة بعث "لنساء نشيطات" ومع ذلك هن مبعدات إمّا " جغرافيا أو رمزيا " عن مكان" السلطة الزمنية والتي تنأى بشكل لا رجعة فيه عن نورها الأصلي"[10]، مفضلة

صيغة ضمير المتكلم للحديث عنهن، واتخذت تلك الشخصيات كأقنعة، لا لإخفاء الحقيقة ولكن لإظهارها مرة أخرى بعد أن طالها الإنكار والنسيان والتشويه .

بعدها مباشرة، تدشن آسيا جبّار مرحلة جديدة ومختلفة من الكتابة شعرت أثناءها بأنّ مأساة البلاد قد التهمتها بالكامل: "كانت حاجتي للكتابة كعلاج وبهدف التوضيح كما لو أن توازني الشخصي كان يتوقف على ذلك كل يوم !.." [11] فكانت" ليالي ستراسبورغ"، "تلك الأصوات التي تحاصرني" ، والجزء الرابع من الرباعية المعنون بـ"المرأة بدون قبر" ،" بياض الجزائر"، و"وهران لغة ميتة" وقد تميّزت هذه النصوص باختلاف انتمائها الأجناسي؛ فمنها الرواية، المقالات، والقصص.

أربع سنوات من آخر إصدار لها ونشير هنا إلى رواية:" اختفاء اللغة الفرنسية "

(La disparition de la langue française)، تصدر آسيا جبار روايتها الأكثر شخصية وحميمية من كل ما كتبته سابقا ، فكان النص أو الرواية السير ذاتية "لا مكان في منزل والدي".

4- (لا مكان في منزل والدي): بين هاجس البوح والخوف من الانكتاب:

(Nulle part dans la maison de mon père) هو إذا عنوان للرواية الأكثر حميمية لآسيا جبار، والذي يمكن أيضا ترجمته بـ(لا نصيب في منزل والدي) إذ اللفظة "Part " في اللغة الفرنسية، تحتمل معاني: النصيب و السهم والقسمة والجزء وأخيرا المكان.

وإن كنت شخصيا أفضل الترجمة الثانية، أي النصيب أو القسمة، ولهذا التفضيل سبب قوي؛ ذلك أنّ عنوان العمل مستلهم من مقولة تضعها الروائية على لسان فاطمة (رضي الله عنها) ابنة الرسول الكريم (عليه الصلاة و السلام) والتي بحسب بعض الروايات قد طالبت أبا بكر الصديق بحقها من ميراث والدها عليه السلام، فرفض لقول النبي (ص): "نحن الأنبياء لا نورث.." ".....وجدت نفسها مسلوبة من الميراث الأبوي، فعانت من ذلك حتى الموت كأنّني أسمعها وهي في الرمق الأخير هامسة لا مكان (لا نصيب)، لا مكان في منزل والدي ! "[12].

لقد وقفت آسيا جبار –سابقا- مطوّلا عند تلك الحادثة في روايتها (بعيدا عن المدينة) إذ مثلت فاطمة الزهراء بنت الرسول نموذج المرأة الصلبة والعنيدة، المطالبة بحقها والمتحدّية، خاصة في سياق هذه الرواية بالذات مثال "الابنة المحبوبة" و "المفضّلة "والأكثر شبها بوالدها، وإلى هذا المعنى ترنو الروائية وتلمّح، إذ لا ننسى أنّ اسمها الحقيقي هو فاطمة الزهراء إيملاين:« أتساءل هل كل مجتمع من النساء محكوم عليهن بالانحباس يجد نفسه مدان أولا من داخل انقسامات مشحوذة حتميا بسبب منافسة بين سجينات متشابهات...؟ أو أنه هنا يضمحل كل حلم: الحب الأبوي، الذي يمنحك الوضعية المشتهاة لـ " ابنة أبيها" " الإبنة المحبوبة" على صورة ثقافتنا الإسلامية كالرسول "[13] ، ثم تورد تلك العبارة المتخيّلة على لسان فاطمة.

يمكن إعادة صوغ تساؤل الكاتبة / الراوية على النحو التالي: نحن النساء ضحايا لعدة تعسفات، لكن ألسن ضحايا لتعسفات نابعة أولا من داخل مجموعتنا بسبب الغيرة وقلة التضامن، ثم من قبل المجتمع الذكوري الذي لا يريد أن يعطينا حقنا من الميراث (والذي كفله لنا ديننا الحنيف) سواء أكان الميراث ماديا (المال) أو معنويا (الكلمة والحق في التعبير). عبر استعارة فاطمة بنت الرسول، تحاول الروائية أن تمرّر الرسالة الآتية: قد كنت الابنة المفضلة والمحبوبة لوالدي(والقارئ لرواياتها سيكتشف العلاقة المميّزة التي ربطتها به ويستشعر تلك الرابطة الخاصة التي عقدتها مع والدها) ولم أشعر على الرغم من ذلك بأنّ لي نصيبا أو مكانا في منزل الوالد.

إذ مأساة كل فتاة أو امرأة عربية ومسلمة أن تبقى بعيدة حتى عن أقرب الناس إليها؛ لأنه وبحكم العادات والتقاليد لا يمكن للمرأة أن ترث أباها حتى ولو أعطيت ذلك الحق، فإنّ ميراثها سيبقى دوما ناقصا أو إن شئنا إنّ من يحافظ على النسب واسم العائلة وكل ما يتركه مؤسسها الأول هو الإبن /الذكر لا الإبنة / الأنثى.

تحت العنوان مباشرة يصادفنا مصطلح « رواية» وهو إشارة من الروائية بأنّ النص الماثل أمامنا هو « محض تخييل»، لكن الأصح والأدق بنظري هو مصطلح الرواية – السير ذاتية

Le roman autobiographique وهذا النوع من الكتابة يمزج بين أسلوبين، أسلوب الرواية وأسلوب السيرة الذاتية. لكن لماذا اللجوء إلى هذا النوع من الكتابة - النغولة[*] ؟ قد نجد لهذا الأمر عدة تبريرات، ذلك أنّ السيرة الذاتية وإن عرفت إقبالا كبيرا وانتشارا واسعا منذ وجودها إلا أنّها تحظى "بسمعة سيئة"[14]؛ إذ الحديث بصيغة الأنا هو دائما محل شك، كتب "جون ستاروبنسكي" قائلا بعد أن حدّد الخطوط العريضة لأسلوب السيرة الذاتية «.....من المسموح به إلقاء الشك على خصائص أسلوب السير الذاتية» "من الجمال بحيث لا يصدق "

(Trop beau pour être vrai) يصبح مبدأ ريبة مطلق" [15]. أو إن شئنا " الأنا مكروه" بحسب عبارة "بسكال" الشهيرة هل ما يقوله الكاتب (ة) صحيح ألم يخف عنا بعض الأحداث ألم يجمل بعضها وقتم البعض الآخر؟ ثم كيف لأحداث وقعت في الماضي ويعاد استذكارها سنوات عديدة من بعد أن تحافظ على دقتها ودلالتها الأصلية؟ ومع ذلك لا يمنعنا الإشكال من طرح سؤال جوهري: « أليست كل كتابة خاصة تلك التي تمّ تفعيلها من طرف كائن أو" أنا " هي بشكل قطعي كتابة سير ذاتية..؟ كل كتابة هي أنا اعترف بذلك المؤلف أم لم يعترف، لا نكتب شيئا خارج الذات كما صرح بذلك بعضهم" [16].

ويمكن أن نضيف أنّ السيرة الذاتية ،لا تتعلق بصاحبها فقط فهناك " الآخرون " الذين عاش معهم أو صاحبهم أو صادفهم أثناء حياته، وفي بعض الحالات تسببت بعض السير في خلق أزمات لخرقها طابوهات معينة ولنا في نموذج السيرة الذاتية التي كتبها سهيل إدريس أحسن مثال.

إن أردنا أن نجد للروائي سببا (قويا) للجوئه إلى نوع الرواية السير الذاتية لقلنا إنّه راجع إلى كون « الكاتب غير راض عمّا عاشه أو فعله ... أو يريد أن يعطي بنفسه صورة مغايرة فيحول حينذاك الماضي و يخلط التخييل بالحقيقة فتتحول السيرة الذاتية إلى رواية ولا يغدو ممكنا للقارئ أن يحدد من أين تنتهي الحقيقة ويبدأ التخييل » [17].

في نهاية " روايتها –السيرة" أضافت آسيا جبار ملحقا هاما عنونته " سكوت على حرير أو الكتابة هروبا " [*](Silence sur soie ou L'écriture en fuite) والذي يحوي برأيي بعض أسباب لجوئها إلى هذا النوع من الكتابة. بدءا تلعب الروائية على التماثل الصوتي وحتى الغرافي بين كلمتي "soie " (حرير) و "Soi " (ذات) وبررت لجوءها إلى الكلمة الأولى (Soie) كون الكتابة عن الذات معذبة وشاقة لذلك هذا « التذكر، مع مجهود في الازدواج متصاعد، يحملني إلى " الحريري" لا المعذب، لكن تضيف جبار: « كيف يمكن لهذا التحليل الذاتي الانعكاسي "الحريري " وبالتالي المطمئن لأنّه ينبع من صفاء الذهن،إن لم نقل من الرصانة؟ كيف – إن افترضنا أنّ الهدف قد تحقق- يمكن تفادي أنّ هذه الإضاءة حول الذات لا يصاحبها ندم لا مفر منه » [18].

إنّ الندم الذي تتحدث عنه آسيا جبار يرجع- ربما- إلى الجزء الثالث والأخير من العمل و المعنون بـ: "تلك التي تركض حتى البحر" وهو الجزء المخصص لمرحلة نهاية المراهقة وفيه تحكي واقعة مؤلمة حدثت لها إذ وبعد دخولها في جدال حاد وعقيم مع صديقها حاولت الانتحار برمي نفسها تحت عجلات الترامواي ولحسن حظها تمّ إنقاذها في اللحظات الأخيرة لم تستطع بطلة الرواية (أو الكاتبة نفسها) أن تفهم دوافع هذا الفعل الجنوني واليائس ومع ذلك أوردت الحادث بكل تفاصيله وبإسهاب طويل، كل ما أرادته حينها هي أن يتقطع جسدها إلى أشلاء وأن تتماهى مع البحر « ملتفتة نحو نفسي، ذاك السؤال لا زال يقلقني بدون أن أعثر له على جواب أحسه وأحاول داخل نفسي أن أحطم تلك المسافة، أن أفهم، أن أفهم ذاتي.....تساؤلات لا تعنيني فقط، بل تعني كل أولئك النسوة هناك على الضفة الجنوبية من البحر المتوسط» [19]. وحتى تبقي الروائية سيطرتها كاملة على أحداث حياتها تمضي في حوار داخلي مطوّل، تنفي فيه كل خوف يمكن أن يُستشعر من السيرة الذاتية: "هذا البديل المعلمن « Laïcisé » للاعتراف في الأدب الغربي، في الأدب العربي حتى لا أبقى مع أساتذة «غربي» Les maîtres de mon (occident) فإنّ السيرة الذاتية حتى لكبار الكتاب – ابن عربي الأندلسي، ابن خلدون المغربي- تغدو مسار روحي أو فكري: تسجيل لمراحل الحياة الداخلية الصوفية للأول والفكرية السياسية للثاني، أمّا في حالتي المتواضعة، فإنّ الضرورة التي حرّكت هذه « الكتابة عن الذات » هذا المسار المتشظّي، المقدّم في شكل فتات، لم يفرض في الحقيقة نفسه على الأقل بشكل مستعجل، ألا يكون كما عرّفته "أنا أرندت Hannah Arendt" « معرفة ذاتية غير صبورة"! [20]. ربما هي كذلك، لكنّنا عندما ننتهي من قراءة هذا العمل نجده في الواقع يكمّل حلقة في المسار الحياتي والأدبي للروائية، إذ لو لاحظنا الفترة التي غطّاها الكتاب من حياتها

نجد أنّها تمتد من طفولتها إلى غاية سن السابع عشر وبالضبط أكتوبر من العام 1953 سنة واحدة بالتمام قبل اندلاع الثورة وأربع سنوات قبل نشر الكاتبة أولى روايتها " العطش" سنة 1957 .

إذًا بعد خمسين عاما (حين انتهت جبّار من كتابة "لا مكان في منزل والدي "في ماي من العام 2007)، تحس أو نحسها أنّها تكمل تلك الحلقة (حلقة الحياة ؟) أو تضيف اللبنة ما قبل الأخيرة إلى صرحها الخاص، كأنّها تتمم مشاهد الروايات الأولى التي كتبت أثناء الثورة وبعد الاستقلال والتي وصفت بالساذجة وتم فيها البحث عن "أسلوب خاص" أو إن استعرنا تعبير جبار "هندسات لغوية"، ثمّ الصمت الذي صحبها مدة عشر سنوات، فمعاودة الكتابة بنفس جديد واستكشاف وسائل أخرى للتعبير (ونقصد هنا الفيلم السينمائي نهاية السبعينات) فالثمانينات ورباعيتها، فالتسعينات الشاهدة على سنوات الإرهاب وأخيرا هذا الكتاب الاستذكاري المليء بقصص الطفولة والمراهقة في الصفحات الأخيرة من الملحق كتبت تقول:« قلت لنفسي فجأة، تقريبا عند نهاية هذا المشروع ، يوجد هناك نوعان من الكتب: من جهة، تلك التي من خلال صفحاتها يتمدد بشكل لا مرئي لكن لازب الجسد نفسه للمؤلف ،ومن جهة أخرى كل الكتب

[الأخرى] صغيرات، أو كبيرات، مستلهمات أو ببساطة ماهرات و فاتنات المكتوبة في ألف لغة ولغة من لغات العالم الحية كما الممحية...تلك التي تنتمي إلى الصنف الأول والتي نقرأها بشعور غامض بأنّ الكاتب (ة) الممدّد (ة) إلى الأبد منذ ذاك ويقلبّان مع ذلك معنا الصفحات، ألا ينتميان فقط إلى الفن....ألا يكون وزنهما بسبب درجة خطورتهما أو بالأحرى بسبب عدم انعكاسهما، أكثر ثقلا؟ ندخل فيهما ونخرج وأحيانا القلب مثقل كأنّ الكاتب (ة) وتحت أنظارنا لا يمكن اقتلاعه (ها) من الصفحات....كأنّ الكاتب كان يدفع الثمن مضاعفا ! أي ثمن؟ ولماذا القول « يدفع» إذ يمكننا أن نفترض أنّه على العكس تحرّر وأصبح أكثر خفة؟ .....نحن القراء وقد وصلنا إلى نهاية النفق، هل سنعانق بنظرة أكثر نفاذا الحقل العبثي المعيق للأطلال التي سيتركها الكاتب (ة) والذي أمامنا يأسف على عدم نجاحه....."[21].

كأنّ الروائية تلمّح من خلال قولها إلى أنّ الكتابة بالذات وعن الذات، وحتى تلك النائية عنها، لا تمنع صاحبها من أن يُقرأ ويُفهم من قبل جمهوره، بأنّها كتابة عن نفسه، "عن جسده"، إن استعرنا تعبيرها، وحتى نعرف مدى تأثرها بمحاولة الانتحار تلك، تكتب جبّار مباشرة بعد:" لماذا لم تذهب ببساطة إلى غاية البحر لتغرق- نعم لكي تغرق نفسها؟ هأنذا ككاتبة – والتي تغامر برؤية ذلك الجسد الممدد المقطوع إلى أجزاء أو المندثر- وهي تركض على حافة الجنون تبدو وكأنها تقول لنا إنها تفضل في النهاية شكل الكتابة – الاعتراف، عن الكتابة هروبا ....ودمعا" [22]. ثم تضيف: « أرجع إلى هذه "الأنا" البعيدة، المختفية والتي تطفح من جديد في ذاكرتي والتي بانفتاحها على رياح الكتابة، تحرّض النفس على أن تفضح نفسها، إذ لم تستطع أن تتبرأ من ذاتها أو تنسى، أن تقول لنفسها وداعا، الحلقة التي يفتحها هذا النص هي أولى خطوة لمشروع، وإن فرضت هذه الصورة الهندسية نفسها علي، أكتشف فجأة أنه سيكون هناك على

الأقل ثلاثة.... كحلقات الفراشة التي ستقطع ليلها داخل شرنقتها، طوقني حينها إحساس بأنّ آخر حلقة بانفتاحها وانغلاقها ستتصادف وآخر نفس من أنفاسي» [23].

يعجب المرء بتشبيه آسيا جبار الأخير للحياة أو لمسارها بمسار الفراشة؛ فهذه الأخيرة لها عدة دلالات، فبالإضافة إلى الحشرة المعروفة والتي تمتاز حياتها بقصرها الشديد، فإنّه وفي اللغة الفرنسية عدة تعابير تستعمل فيها كلمة فراشة (Papillon)، فيقال عن الموضوع الحزين والأفكار السوداوية Papillon Noir وأيضا تطلق اللفظة للدلالة على الأوراق الصغيرة، وتعني كذلك قطعة متحركة ومحورية تستعمل لتغطية فتحة من أجل تصحيح تدفق ما [بمعنى آخر مراقبته] [24].

ونقف على نحو غريب على كل هذه المعاني في كتاب آسيا جبار، فمهما عاش الإنسان فإنّ حياته في نهاية الأمر قصيرة إن قيست بالأبدية، وهناك معنى للكتابة، فلا كتابة دون ورق، ونقف على معنى الموضوع الحزين وهو شعور ينتابنا ونحن ننتهي من قراءة العمل والذي ختمته صاحبته بحادث الانتحار الفاشل، وهناك أيضا رغبة الكاتبة في تصحيح الصورة أو لنقل سردها كما تريد هي ،أي أن تراقب وتصحح تدفق الذكريات والأحداث وتعطيها تأويلها الخاص، وأخيرا هناك نوع من الأسماك ذات ألوان زاهية يعيش بخاصة في المناطق الأرجوانية يدعى فراشة البحر [25] وقد حضر البحر بقوة في الفصل الأخير من الرواية.

خـاتمة:

لقد أصبحت الكتابة عن الذات ميزة وظاهرة أدبية جذبت المنظرين والفلاسفة، خاصة منذ نهاية السبعينات وما يشكّل إشكالا حقيقيا هو الدوافع القابعة ورائها. فهل هي كما قال آلان ميلون" في أحيان عديدة كتابة إلى الذات وعن الذات وبالذات ولأجل الذات " .لذلك يجب الحذر مع هذا النوع من الأدب الذي يدّعي قول كل شيء أو بعضا منه وهو في الحقيقة يوهم بذلك حتى يسقط القارئ في فخ القراءة الخطية المباشرة المنفعلة لا الفاعلة ولا يحاول الحكم (الأخلاقي) على الكاتب.

في النهاية فإنّ كل روائي وبالتوسع كل إنسان يحاول أن يقدم تبريرات وتفسيرات للمواقف والقرارات التي اتخذها ويطلب منّا التفهم بل والتعاطف معه، وفي حالة آسيا جبار نقف على رغبة منها في أن نشاركها التجربة وأن لاندفع بالتساؤل بعيدا وأن نكتفي بما تقدمه من خطاب نقدي عن الكتابة السير – ذاتية ، فهل أفلحت في ذلك؟ تلك مسألة أخرى كما يقول المعلقون.

الهوامش:

[1] -philippe lejeune : le pacte autobiographique novelle édition augmentée éd. Du seuil. paris 1975, 1996. P :7.

[2] - جليلة الطريطر: مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث البحث في المرجعيات جزءان الأول والثاني مركز النشر الجامعي ومؤسسة سعيدان للنشر تونس د.ط. 2004، ص122.

[3] -philippe gasparini : autofiction une avanture du langage éd du seuil 2008 p :17.

[4] -ibid.

[5] -ibid.

[6] Laurance Hughe: écrits sous le voile, romancières Algérienne francophones écriture et identité, essais Publisud, 2001 p:41.

[7]- Hafid Gafaiti: écriture autobiographique dans l'œuvre d'assia djebar parù dans le site: www.ziane-online.com /assia_djebar/textes/ecriture_autobiographie. htm

[8] - ج. هيوسلقرمان: نصيات بين الهرمينوطيقا والتفكيكية ترجمة: حسن ناظم وعلي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط1 2002، ص:178.

[9]Giuliva Milo: loin de médine de l'écrit à la résurrection des voix dans: Algérie ses langues, ses lettres, ses histoires, balises pour une histoire littèraire textes rèunis par afifa brarhi et baida chikhi édition du tell, Blida 2002 p: 153.-

[10] - Assia Djebar: loin de médine, filles d'Ismail Albin Michel 1991 p:7

[11] - آسيا جبار: ذاكرة النساء لو لم يكن عندي هذا الشغف العارم بالأدب لو لم أكن قد سرت في شوارع مدن كمجهولة وعابرة حوار مع آليات أرمل ترجمة حكيم ميلود.

[12]- Assia Djebbar: Nulle part dans la maison de mon père ed.Fayard, Octobre, 2007 p: 207.

[13] - nulle part dans la maison de mon père p.207

[*] هي ترجمة لكلمة l'écriture hybride

[14] - www . etudes-litteraires. com /autobiographie php

[15] - L'œil vivant II, la relation critique gallimard 2001, p:112

[16]- www.e-litterature.net

[17] -www.etudes-litteraires.com/bac- français/genres-litteraires-biographie php

[*] - استعملت الروائية في عمل سابق لها (فسيح هو السجن) كلمة حرير لوصف الكتابة قالت": لطالما اعتقدت أن الكتابة هي الموت بطيئا، أن تنشر بتردد كفنا من رمل أو حرير على ما عرفناه "أنظر الرواية، vaste est la prison, .

[18] - Nulle part dans la maison de mon père, p:401

[19] - Nulle part dans la maison de mon père, p:401

[20] - Nulle part dans la maison de mon père, p: 391

[21] - Nulle part dans la maison de mon père, p:402

[22] - Nulle part dans la maison de mon père, p:403-404

[23] - Nulle part dans la maison de mon père, p:405.

[24] - Dictionnaire Hachette encyclopédique Hachette 1999, p: 1392,

[25] - Nulle part dans la maison de mon père p: 348